القدس في شعر القرن السادس للهجرة

الدكتـور
ناظم رشيد
كلية الآداب ـ جامعة الموصل

تمهيـد

القـدس ، أو بيت المقدس ، مهوى افئدة المسلمين ، وقبلتهم الأولى ، ومسـرى الرسول الأعظم محمد بن عبدالله ـ صلى الله عليه وسلّم ـ رددته الألسن ، ولهجت به ، في مشـرق الأرض ومغربها على مرّ العصور ، وكر السنين . ولله درّ القائل(1) :

أهيمُ بقاعِ القدسِ ما هبّتِ الصّبا
فتلك رباعُ الأنس في زمنِ الصِّبا
وما زلتُ في شوقي إليها مواصـلاً
سـلامي على تلك المعاهـدِ والرُّبى

وقد ورد ذكر الارض المقدسة في القـرآن الكريم ، واريد بها بيت المقدس ـ على راي بعض المفسّرين ـ في قوله تعالى(2) : (يا قومِ ادخلوا الأرض المقدّسة التي كتب الله لكم) ، كما ورد ذكر المسـجد الأقصـى الذي يقع فيها في قوله تعالى(3) (سبحان الذي أسـرى بعبده ليلاً مـن المسجدِ الحرامِ الى المسجدِ الأقصى) . وجاء ذكر البيت المقدس في أكثر من حديث شريف ، من ذلك قوله ـ صلّى الله عليـه وسـلم(4) ـ : « لا تُشَدُّ الرحالُ إلاّ إلى ثلاثةِ مساجد : مسجدي هذا ، والمسجد الحرام ،ومسجد البيت المقدس »

فتح المسلمون (القدس) سنة ١٧ للهجرة في خلافة أبي حفص عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وكانوا مسامحين ، لا يمنعـون الناس من دخولها ، ورؤية مزاراتها ، مهما كانت اديانهم ، واختلفت أجناسهم ، وتنوّعت الوانهم ، وبَعُدت مشاربهم .

وفي سنة ٦٦ للهجرة بدأ الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان بعمارة المسجد الأقصى وبناء قبـة الصخـرة . يقول أبو اليُمن مجـير الدين الحنبلي(5) : « جمع ـ اي عبدالملك ـ الصنّاع لعمله ، وارصدَ للعمارة مالاً كثيراً ، يقال : إنه خراج مصر سبع سنين ... ووكّلَ على صرف

(1) معجم البلدان ٥ : ١٧١ .

(2) سورة المائدة ، الآية ٢١ . وانظر الكشـاف للزمخشـري ١ : ٦٠٣ .

(3) سورة الاسراء ، الآية ١ .

(4) صحيح مسلم ٢ : ٩٧٦ ، وانظر الأحاديث التي أوردها ابن الجوزي في كتابه (فضائل القدس) ص ٨٨ ـ ٩٠ .

(5) الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ١ : ٢٧٢ .

المال في عمارة المسجد والقبّة وما يحتاج إليه ابا المقدام رجاء بن حياة بن جود الكندي ، وكان من العلماء الأعلام ، ومن جلساء عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه ، وضمّ إليه رجلا يدعى يزيد بن سلام ... وفرغ البناء ... فكتب رجاء ويزيد الى عبدالملك بدمشق : قد اتمّ الله ما امر به امير المؤمنين من بناء قبة صخرة بيت المقدس والمسجد الأقصى ، ولم يبقَ لمتكلمٍ فيه كلام ، وقد بقي مما امر به امير المؤمنين من النفقة عليه ـ بعد أن فرغ البناء واحكم ـ مئة الف دينار ، فيصرفها امير المؤمنين فيما أحب .

فكتب إليهما أمير المؤمنين : قد أمرتُ بها لكما جائزة لما وليتما من عمارة البيت الشريف المبارك .

فكتبا إليه : نحن أولى أن نزيده من حلي نسائنا فضلا عن أموالنا ، فاصرفها في احب الأشياء إليك .

فكتب إليهما بأن تسبك، وتفرغ على القبة. فسبكت ، وأفرغت عليها ، فما كان أحد يقدر أن يتأملها مما عليها من الذهب » .

هكذا فتح بيت المقدس ، وعمّرَ من بعدُ ، وبقي تحت إشراف المسلمين ورعايتهم .

وما كادت تحل سنة ٤٩٢ للهجرة حتى دخل الصليبيون الزاحفون من الغرب مدينة (القدس)، وجاسوا خلالها بجيوش لجبة ، وعدّة ضخمة ، ولبثوا فيها ما يقرب من مئة عام .

انقذ المجاهد الكبير صلاح الدين الأيوبي مدينة (القدس) سنة ٥٨٣ للهجرة من الصليبيين ، وحرّرَ قاطنيها من قيود الاحتلال، وأعاد مفاتيحها الى اصحابها الشرعيين ، ومالكيها الحقيقيين .

وكان لخروج (القدس) من أيدي المسلمين ، ثم عودتها إليهم ، أثر بالغ في تحريك قرائح الشعراء ، وتفجير عواطفهم ، واحتدام أحاسيسهم ، وإلهاب مشاعرهم . وقد حفظت لنا المصادر جزءاً كبيراً من شعرهم . وستكون دراستنا في هذا البحث على الوجه الآتي :

١ ـ دور الشعر قبل تحرير القدس : ويبدأ من استيلاء الصليبيين على القدس في سنة ٤٩٢ للهجرة الى سنة ٥٨٣ للهجرة ، وهي السنة التي انقذها صلاح الدين الايوبي ، وحرّرها من المحتلين .

٢ ـ دور الشعر بعد تحرير القدس : ويبدأ من سنة ٥٨٣ للهجرة الى سنة ٥٨٩ للهجرة ، وهي السنة التي مضى فيها صلاح الدين الأيوبي الى ربه .

٣ ـ الملامح الفنية للشعر : سنوضح فيها ـ وباختصار ـ أهم السمات الفنية التي اتسم بها الشعر الذي قيل في القدس .

دور الشعر قبل تحرير القدس :

هبّت سنة ٤٧٨ للهجرة جموع غفيرة ـ بعد ان تجمّعت في أوربا من كلّ فج عميق ـ للإغارة على ديار العرب ، فبدات بشمال الأندلس ، وسيطرت على طليطلة ، ولم تستطع التوغل الى الجنوب لمقاومة المسلمين الشديدة آنذاك ، فاتجهت نحو جزيرة صقلية واخضعتها لحكمها سنة ٤٨٤ للهجرة . فلما حلّت سنة ٤٩٠ للهجرة خرجت وبأعداد اكثف الى الشرق طمعاً في خيراتها ، وأملاً في إقامة إمارات لهم فيها ، خاصة في (القدس) والساحل الشامي ، وكانت الدولة العباسية وقتئذ ضعيفة تعاني من تفرّق الكلمة ، وتشتت الشمل ، وتناحر الطوائف ، وتنازع المذاهب ... فسقطت مدن الشام بأيديهم ، كتساقط أوراق الخريف ، الواحدة تلو الأخرى ، وفتكوا بسكانها دونما رحمة أو شفقة ، وشرّدوا الآلاف ، وجعلوهم يهيمون في الأرض ، يطاردهم النوى ، ويلاحقهم الشقاء . وأذلوا من بقي منهم بعد أن سلبوا أموالهم ، وانتهكوا حرماتهم ، ونهبوا مزارعهم ، وأباحوا كنوز علمهم التي ورثوها عن آبائهم ، ودنّسوا بسنابك خيولهم مواقع عباداتهم .

ولما اطلت سنة ٤٩٢ للهجرة ، وقعت الفاجعة الكبرى ، والنكبة العظمى ، اذ استباح المغيرون من الغرب مدينة (القدس) بقسوة لم يعرف التاريخ لها مثيلاً ، ونترك الحديث لابن الأثير ليروي لنا طرفاً من افعالهم . يقول(٦) : « وقتل الفرنج بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين الفاً ، منهم جماعة كثيرة من ائمة المسلمين ، وعلمائهم ، وعبّادهم ، وزهّادهم ،

(٦) الكامل لابن الأثير ١٠ : ٢٨٣ . وانظر فضائل القدس لابن الجوزي ص ١٢٥ .

ممن فارق الأوطان ، وجاور بذلك المكان الشريف ، واخذوا من عند الصخرة نيفاً واربعين قنديلا من الفضة وزن كل قنديل ثلاثة آلاف وستمائة درهم ، واخذوا تنوراً من الفضة وزنه أربعون رطلا ، ومن الذهب نيفاً وعشرين قنديلا، وغنموا ما لا يقع عليه الإحصاء » .

لقد كانت هذه الهجمة بداية المأساة التي استلهم الشعراء منها قصائدهم التي أودعوها آهاتهم وحسراتهم من جهة ، ونقمتهم وغضبهم وثورتهم من جهة اخرى .

وكانت أولى القصائد التي استلهمت المأساة ، واستوحت أحداثها ، قصيدة الأبيوردي (ت ٥٠٧) ، ومطلعها(٧) :

مزجنا دماءً بالدموعِ السواجمِ
فلم يبقَ منا عُرْضَةٌ للمراجمِ

اطلق الشاعر صيحته المدوية من اعماق قلبه المكتوي بنار الحزن والأسى على ما حلَّ بالقدس الشريف ، وما أصاب من سكن في حماها . ونراه يشحذ العزائم ، ويستنهض الهمم ، ويثير الحفائض ، ويحذر المسلمين من وقائع أدهى واعظم ، ومصائب انكى واجسم ، إنْ هم استكانوا الى الدعة والراحة ، وجنحوا الى السلم ، وخلدوا الى السكينة ، واستظلوا بظل العيش الرغيد ، دون الالتفات الى هبوات الغرب :

فأيْها بني الإسلامِ ، إنَّ وراءَكم
وقائعَ يلحقْنَ الذُّرا بالمناسمِ(٨)
أتَهْويمةً في ظلِّ أمنٍ وغبطةٍ
وعيشٍ كنُوّارِ الخميلةِ ناعمِ(٩)

(٧) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ٩ : ١٠٨ ، الكامل لابن الأثير ١٠ : ٢٨١ ، النجوم الزاهرة ٥ : ١٥١ ، وتنسب القصيدة الى القاضي زين الدين أبي سعيد الهروي ، وقد راجعنا ديوان الأبيوردي المطبوع فلم نجدها به .

(٨) أيها : لغة في هيهات بمعنى بعد . الذرا : المرتفعات . المناسم : جمع منسم ، وهو خف البعير .

(٩) التهويمة : هزة الرأس من النعاس . النوار : زهرة الشجر .

وكيف تنامُ العينُ ملءَ جفونِها
على هَبَواتٍ أيقظتْ كلَّ نائمِ

وكشف الشاعر عن صورة دامية ، ذات الوان مؤثرة ومشوِّهة ليجلب انتباه الناس الى الخطر الذي ينتظرهم، والبلاء الذي سيداهمهم، والمذلّة التي ستنتابهم إن هم لم يهبوا بعددهم وعُددهم الى انقاذ (القدس) من الفئة الباغية ، ولات ساعة مندم :

وتلكَ حروبٌ من يغبْ عن غمارِها
ليسلمَ ، يقرعْ بعدَها سِنَّ نادمِ

استنفار الى الجهاد ، تحريض على اقتحام غمار هذه الحروب الإجماعية ، وعدم التخلّف عنها طلباً للسلامة ، لأن الحرب الإجماعية تقاوم بمثلها ، وإلاّ غلبت الأمة ، ونزل البلاء في كلّ من نكص عن القتال .

ويطيل الشاعر من حديث الظلم ، والتهيب من الظالم ، والميل الى السكون ، ومغبّة ذلك . ويكرر دعوته الى القيام بغارة شعواء ، تعاضدها العزيمة والثبات ، ويساندها الإيمان بالحقّ ، وتؤازرها الكرامة والعزّة ، غارة تعطي الأعداء درساً ، وتجعلهم يعظون على أصابعهم ندماً ، ويقولون ليتنا لم نأت الى هذه الديار ، ولم نفعل تلك الأفعال التي تأباها الإنسانية .

دعوناكمُ ، والحربُ ترنو مُلحّةً
إلينا بألحاظِ النسورِ القشاعمِ
تراقبُ فينا غارةً عربيةً
تطيلُ عليها الرومُ عضَّ الأباهمِ

إن هذه القصيدة القيت في بغداد على جمع غفير من الناس حينما وفدت إليها نخبة مختارة من علماء الشام وخطبائها ، أعقبتها قصائد أخرى ـ كما ذكر المؤرخون ـ لم تصل إلينا ، ما خلا قصيدة أخرى لم نقف على اسم قائلها ، منها هذه الأبيات التي يخاطب الشاعر فيها ذوي البصائر من المسلمين الساكتين عن نداء الاستغاثة(١٠) :

(١٠) النجوم الزاهرة ٥ : ١٥٢ .

أتُسبى المسلماتُ بكلِّ ثغرٍ
وعيشُ المسلمينَ إذنْ يطيبُ؟!

أما للهِ ، والإسلامُ حقٌّ
يدافعُ عنه شبّانٌ وشيبُ ؟

فقلْ لذوي البصائرِ حيثُ كانوا :
أجيبوا اللهَ ويحكمُ أجيبوا

لم تستطع خلافة الإمام المسنصر بالله (ت ٥١٢) أن تُسيِّرَ الجيوش الى الشام ، وتدفع الناس في نفير عام لتخليص (القدس) من الصليبيين ، وسكت أهلُ الشام ، وخضعوا للأمر الواقع ما داموا لا يستطيعون تحديهم ، والوقوف بوجههم . يقول ابن تغري بردي : « إن القاضي ورفقته عادوا من بغداد الى الشام بغير نجدة ، ولا قوّة إلاّ بالله(١١) » .

وقد آلم ابن الخياط الدمشقي (ت ٥١٧) نبأ قعود المسلمين عن نصرة المقاتلين في محنتهم ونظم قصيدة تنمُّ على تأثر عميق ، وانفعال شديد ، وهو ـ على ما يبدو ـ متأثر بقصيدة الأبيوردي التي سبق ذكرها ، قال فيها(١٢) :

أنوماً على مثلِ هدِّ الصفاةِ
وهزلاً ، وقد أصبحَ الأمرُ جدّا

وكيف تنامونَ عن أعينٍ
وترْتُمْ ، فاسهرتموهنَّ حِقدا

ومنها :

فكم من فتاةٍ بهم أصبحتْ
تدقُّ من الخوفِ نحراً وخدّا

وأمٍّ عواتقَ ما إنْ عرَفْـ
نَ حرّاً ولا ذقنَ بالليلِ بَرْدا

تكادُ عليهنَّ من خيفةٍ
تذوبُ وتتلفُ حزناً ووجدا

فحاموا على دينكمْ والحريمِ
محاماةَ من لايرى الموتَ فَقْدا

إنه انكر على المسلمين النوم الهانيء ، وشهاب الحرب يلمع ، والخصم لا يهجع . وصوّر الحالة النفسية آنذاك أصدق تصوير وادقه ، فالفتيات يلطمن خدودهنّ على ما دهاهنّ ، ويضربن على صدورهنّ من خوف ما سيداهمهنّ ، والأمهات أصابهنّ الذهول من الواقع الذي أصبحن فيه ، فحرمن من راحة البال ، واطمئنان النفس ، لأنهنّ يخشين على اولادهنّ من السلب والهتك والهوان .

وحرّض الشاعر في قصيدته على النهوض والاستبسال لمواجهة الأعداء ، وقطف رؤوسهم، وحصدها من الأراضي التي دقّوا فيها أوتاد خيامهم ، واقاموا عليها مستعمراتهم :

فدونكم ظفراً عاجلاً
لكم جاعلاً سائر الأرض مهدا

فقد أينعتْ أرؤسٌ للفرنجِ
فلا تغفلوها قِطافاً وحَصْدا

فلا بدَّ من حَدِّهم أنْ يُفلَّ
ولا بدَّ من ركنهم أنْ يُهدّا

ولما استولى عماد الدين زنكي على دست الحكم في الشام سنة ٥٢٢ للهجرة ، وضع نصب عينيه تحرير (القدس) والأراضي المسلوبة . وهبّ الشعراء يباركون هذا الهدف ، ويبثون دعوة الجهاد والكفاح بين العامة والخاصّة ، مستغلين كلّ مناسبة ينتصر جيشه فيها على جيش الإفرنج ،مضمنين قصائدهم ذكر (القدس) ومكانتها ، وضرورة تحريرها .

وأول صوت نسمعه في هذا المجال ، هو صوت الشاعر احمد بن منير الطرابلسي (ت٥٤٨) الذي هنأ عماد الدين زنكي سنة ٥٣٩ للهجرة بقصيدة طويلة حينما فتح « الرها » واسترجعها من جوسلين ، وهو ـ كما يقول أبوشامة

(١١) النجوم الزاهرة ٥ : ١٥٢ ، والقاضي هو زين الدين أبو سعيد الهروي رئيس الوفد .
(١٢) ديوان ابن الخياط ص ١٨٢ .

المقدسي[13] — عاتي الفرنج وشيطانهم ، والمقدَّم على رجالهم وفرسانهم . جاء في القصيدة[14] :

وغـداً يُلقى على القـدس لهـا
كلكلٌ يدرسُها درسَ الدَّرين[15]
همـةٌ تمسـي ، وتُضحي عـزمةً
ليس حصنٌ — إنْ تحطهُ — بحصينْ
قـلْ لقـوم غرَّهـم إمهـالهُ
سـتذوقونَ شـذاهُ بعـدَ حـينْ

لقد كان عماد الدين بطلا مقداماً ، وفارساً شجاعاً ، استردَّ من الإفرنج أقوى الحصون وامنعها ، وكان ابن منير الطرابلسي متفائلاً من أن (القدس) ستسترجع على يده ، لذلك اشار في أبياته الى ذلك ، وهدَّدَ القوم الذين غرَّهم إبطاؤه بأنهم سيذوقون من كأس المنية ، وإن غداً لناظره لقريب .

وانتهز الشاعر محمد بن نصر القيسراني (ت ٥٤٨) هذه المناسبة أيضاً ، ونظم قصيدة في مدح جمال الدين محمد بن علي (ت ٥٥٩) وزير عماد الدين زنكي الذي شارك في فتح الرها ، واظهر بطولة فائقة ، أكد فيها ضرورة الجهاد ، والمسير الى القدس الشريف ، فقال[16] :

أَمـا آنْ أن يزهـقَ الباطـلُ
وأنْ يُنجـزَ المـدَّةَ الماطـلُ
فـإنْ يـكُ فتـحُ الرها لُجَّـةً
فسـاحلُها القـدسُ والسـاحلُ
فهـل علمتْ علـمَ تلكَ الـديارِ
بأنَّ المقيـمَ بهـا راحـلُ

ساور الصليبيين الخوف ، وملأ قلوبهم الرعب ، وهزَّت فرائصهم الرهبةَ ، وارعدت ابدانهم المهابة حينما تهاوت حصونهم الشامخة التي كانوا يظنونها ما نعتهم من زحف عماد الدين زنكي . ولما امتدت يد الخيانة والغدر اليه ، واغتالته ، وهو نائم في فراشه سنة ٥٤١ للهجرة ، فرح الصليبيون بذلك وهلّلوا ، ولم يدركوا أن عقبة نور الدين محموداً أشد بأساً واصلب عوداً ، وأن ضرباته ستوجعهم ، وتلهب ظهورهم ، وتقلق مضاجعهم .

تابع الابنُ جهاد الأب ، وحمل راية التضحية والفداء عالياً ، وقرَّر أن يقتلع شأفة الصليبيين ، ويزيحهم عن الشام ، ويُحرِّر (القدس) مهما كلَّفه الثمن ، وصنع منبراً نفيساً لينصب في المسجد الأقصى يوم الفتح المرتقب .

التفَّ الشعراء حول نور الدين محمود ، يباركون خطواته ، ويثمنون بطولاته ، ويطلقون من أعماق قلوبهم زغاريد البهجة والفرح بانتصاراته ، ويحرضونه على تحقيق الأمنية الكبرى التي تراود نفوس المسلمين جميعاً ، وتداعب أحلامهم ، الا وهي فتح (القدس) وانقاذه من سلطان الصليبيين .

وكانت أولى جولات نور الدين محمود مع الصليبيين على حصن « حارم » سنة ٥٤٤ للهجرة ، ثم حصن « آنب » ، هزَّمهم فيها شرَّ هزيمة ، تاركين أشلاء قتلاهم متناثرة في ساحة الوغى ، منهم رايموند صاحب انطاكية . قال ابو شامة المقدسي[17] : « ووقعة آنب هذه كانت عظيمة ، وقد أكثر الشعراء القول فيها » . وتعدُّ قصيدة ابن القيسراني الحماسية من اكثر القصائد التي استلهمت الفرحة ، فرحة النصر ، وعبَّرت عن الغبطة التي ملأت القلوب المتلهفة لضرب العدو المغتصب ، وطرده من بلاد الشام ، وهي على غرار قصيدة أبي تمام البائية المشهورة ، ومطلع قصيدة ابن القيسراني[18] :

هذي العزائمُ ، لاما تَدَّعي القُضُبُ
وذي المكارمُ ، لاما قالتِ الكُتُبُ

وتبسَّط الشاعر في تحليل صورة المعركة الحامية ، ووصف الجنود البواسل على خيولهم

(١٣) الروضتين ١ : ٣٦ ، وانظر مفرج الكروب ١ : ١٢٢ ، التاريخ الباهر ص ١٠٢ .
(١٤) الروضتين ١ : ٤٠ .
(١٥) الدرين يبس الحشيش ، أو حطام المرعى اذا تناثر وسقط على الأرض .
(١٦) الروضتين ١ : ٤٩ .
(١٧) الروضتين ١ : ٥٨ .
(١٨) مفرج الكروب ١ : ١٢١ ، الروضتين ١ : ٥٨ ، التاريخ الباهر ص ٩٩ .

المغيرة ، والآلات التي استخدموها في ضرب العدو وقهره ، والمعنويات العالية التي تحلّى بها المجاهدون الصابرون ، والمقاتلون الصامدون . واختتم قصيدته بأبيات يدعو فيها للنهوض الى المسجد الاقصى الذي يرتقب مجيء المنقذين له بفارغ الصبر :

فانهضْ الى المسجدِ الأقصى بذي لجبٍ
يوليكَ أقصى المنى ، فالقدسُ مرتقبُ
وائذنْ لموجكَ في تطهيرِ ساحلهِ
فإنّما أنتَ بحرٌ لجّهُ لجبُ

وانتهز الشعراء بعد هذا كلّ فتح احرزه نور الدين ، وكلّ نصر ظفر به ، وعدّوه فرصة للتذكير بمقام (القدس) واهميته ، وما يجب على المسلمين وقادتهم ان يفعلوه في المستقبل لاستعادة عزّتهم وكرامتهم اللتين فقدوهما في سالف وغابر أيامهم .

وها هو ذا الشاعر ابن القيسراني يستغل حادثة اسر جوسلين القائد المشهور سنة ٥٤٦ للهجرة ، وينظم قصيدة يمدح فيها نور الدين محموداً ، ويبارك له جهاده وجلاده للخصم الباغي ، ويطلب منه ان ييمم وجهه شطر البيت المقدس ليملأ جوانبه نوراً وضياءً ، ويُطهّرَ ارضه من دماء الطارئين عليه ، يقول(١٩) :

فسرْ واملأ الدنيا ضياءً وبهجةً
فبالأفقِ الداجي الى ذا السنا فقرُ
كأنّي بهذا العزمِ ، لا فلَّ حدّهُ
وأقصاهُ بالأقصى وقد قُضي الأمرُ
وقد أصبحَ البيتُ المقدّسُ طاهراً
وليس سوى جاري الدماءِ له طهرُ

واستعدّ نور الدين محمود لخوض معركة جديدة مع الصليبيين . وفي اوائل سنة ٥٤٧ للهجرة ، اقتاد جيشه ، وسار به نحو حصني « انطرسوس » و « يحمور » ، والعزيمة تشدُّ من أزره ، والايمان بالنصر يملأ قلبه ، وهجم على الأعداء ، وحاربهم بضراوة ، وضربهم ضربة افقدتهم صوابهم ، وجعلتهم يرفعون راية الاستسلام . فكان ذلك مدعاة للفخر والاعتزاز ، واقبل الشعراء عليه ، والبشر يطفح على وجوههم والفرحة تغمر لوبهم ، وهنؤوه بقصائد حماسية ، خاصة ابن منير الطرابلسي الذي خصَّصَ اغلب شعره لهذا الغرض ، وانشده قصيدة ، وكأنّها لوحة متكاملة عن المعركة الضارية التي خاضها نور الدين محمود بفرسانه الشجعان ، وجنوده الميامين ، واستغل الموقف ، فالتمس منه أن يواصل النضال ، ويتابع الزحف نحو مدينة (القدس) ويُحررها من الذين نهبوها ، وأباحوا ساحتها ، في غفلة من الزمن ، فقال(٢٠) :

ألقِ العصا فيمن أطاعَ ومن عَصَى
منهم ، ودمّر أرضهم تدميرا
وتريكَ لامعة التريك بساحةِ الـ
أقصى مطهرةً له تطهيرا

وكانت انباء انتصارات نور الدين محمود ، وضرباته السديدة ، قد تجاوزت الشام الى الآفاق ، وانعقدت آمال الغيورين على (القدس) به ، وتمنوا أن يكونوا في صفوف جيشه لينالوا شرف المشاركة في الجهاد الأكبر والزحف المقدس . وكان الوزير المصري ابو الغارات طلائع ابن رزّيك (ت ٥٥٦) من اكثرهم رغبة في هذا الجهاد ، فله جولات موفقة في حرب الصليبيين من الجهة المصرية . وفي ديوان شعره العديد من القصائد التي بعث بها الى صديقه الشاعر المشهور اسامة بن منقذ (ت ٥٨٤) الذي كان ملازماً لنور الدين محمود في حلّه وترحاله ، يطلب فيها ان يقنع نور الدين محموداً في التحالف معه ، وتشكيل جبهتين من الشمال والجنوب لضرب الصليبيين ، وانقاذ (القدس) من أيديهم انقاذاً ابدياً ، حتى إنه ارسل بعثةً رسميةً الى دمشق مع هدايا قيمة وسبعين الف دينار لتنفق في الحرب المقدسة. وها هو ذا يخاطب الشاميين لنصرة دين الله ، والنهوض بعزيمة وثبات لخوض معركة الشرف والفداء ، فيقول(٢١) :

(١٩) مفرج الكروب ١ : ١٢٥ ، الروضتين ١ : ٧٣ ، التاريخ الباهر ص ١٠٣ .

(٢٠) الروضتين ١ : ٨٧ .

(٢١) ديوان طلائع بن رزيك ص ٥٢ ، الكامل لابن الأثير ١١ : ١٢٤

تعالوا ، لعلَّ اللهَ ينصرُ دينَهُ

اذا ما نَصَرْنا الدينَ نحنُ وأنتمُ

وننهضُ نحوَ القادمين بعزمةٍ

بأمثالِها تَحوى البلادُ وتُقسمُ

والح طلائع بن رُزّيك في هذا الطلب ، واصرَّ عليه ، وتابع الكتابة إلى أسامة بن منقذ ، وحمَّلهَ أمانة التبليغ . يقول في قصيدة طويلة[٢٢] :

فانهضِ الآنَ مسرعاً فبأمثا

لكَ ما زال يُدْرَكُ المطلوبُ

والقِ عنّا رسالةً عند نورال

دينِ ما في إلقائها ما يريبُ

قلْ له ، دامَ ملكُه ، وعليه

من لباسِ الإقبالِ بُرْدٌ قشيبُ

أيّها العادلُ الذي هو للدي

نِ شبابٌ ، وللحروب شبيبُ[٢٣]

والذي لم يزلْ قديماً عن الإس

لام بالعزم منه تُجلى الكروبُ

وغدا منه للفرنجِ إذا لا

قوه يومٌ من الزمانِ عصيبُ

إنْ يَرُمْ نزفَ حِقدهم فلأشطا

نِ قناه في كلِّ قلبٍ قليبُ

غيرُنا مَنْ يقولُ ما ليس يُمضيـ

ـهِ بفعلٍ ، وغيرُكَ المكذوبُ

قد كتبنا إليك ، فاوضحْ لنا الآ

نَ بماذا عن الكتابِ تجيبُ

انه نداء من الاعماق ، نداء لحسم الداء الذي طال أمده في قلب الوطن العربي ، وبلغت جراحاته المدى ، ونفد الصبر عليه ، لذلك نراه يعاتب نورالدين محمودا في قصيدة اخرى على مهادنة الصليبيين ، ومد يد الصلح اليهم ، ويحذره من مغبة ذلك ، لان الغدر من ديدنهم ، ونقض العهود والمواثيق من صفاتهم ، فيقول[٢٤]:

وحسمُ أصولِ الداءِ أولى لعاقلٍ

لبيبٍ ،اذا استولى علىالمدنفِ الخلطُ

فدعْ عنكَ ميلاً للفرنجِ وهدنةً

بها أبداً يخطي سواهم ، ولم يُخطوا

تأمَّلْ فكم شرطٍ شرطتَ عليهمُ

قديماً ،وكم غدرٍ به نُقِضَ الشرطُ

وشمِّرْ ، فإنّا قد أعنّا بكلِّ ما

سألتَ ،وجَهّزْناالجيوشَ ولن يُبطوا

ويكرر حسم الداء من جسم الوطن العربي واستئصاله ، ويدعو الى عدم الفتور في اقتلاعه من جذوره ، وطرده الى غير رجعة ، ويغريه بنوال الجزاء العظيم الذي العظيم الذي وعد الله به المجاهدين والقائمين على نصرة دينه ، يقول[٢٥] :

قلْ له ، لا عداهُ رأيٌ ، ولا زا

لَ لديهِ لكلِّ خيرٍ طريقُ :

أنتَ في حسمِ داءِ طاغيةِ الإفـ

ـرنجِ ذاكَ المرجوُّ والمرموقُ

فاغتنمْ بالجهادِ أجركَ كي تلـ

ـقى رفيقاً له ، ونعمَ الرفيقُ

ان ديوان طلائع بن رزيك سجل حافل لمواقف البطولة والشجاعة ، والتضحية والفداء ، والبذل والعطاء ، والنخوة والاباء ، والصدق والوفاء ، من اجل قضية المسلمين العادلة ، الا وهي استرادا الوطن السليب ، وان حديثه

---

(٢٢) ديوان طلائع بن رزيك ص ٦١ .

(٢٣) يريد شبيب بن زيد الشيباني أحد كبار الثائرين على بني أمية ، وكان بطلا في الحرب . توفي سنة ٧٧هـ .

(٢٤) ديوان طلائع بن رزيك ص ٦٩ .

(٢٥) المصدر السابق ص ٨٢ .

ساعة الموت عن المه ، لانه لم يطهر فلسطين من المغير ، ليدل على ما كان لهذا المبتغى من أثر في نفسه[٢٦] .

وجدير بالذكر ان الشاعر اسامة بن منقذ ، وهو رائد من رواد الفتوة والفروسية في عصر الحروب الصليبية ، وقائد محنك من قواد المسلمين ، قد اكثر في شعره من الفخر والحماسة ووصف الوقائع الحربية ، دون الالتفات — كما فعل الشعراء الآخرون — الى ذكر البيت المقدس، وما يجب فعله لانقاذه . ويبدو لنا انه لم يفعل ذلك لئلا ينشغل المسلمون به دون غيره ، فأن مبداه طرد الصليبيين من الشام جميعا ، وتحرير عموم تراب الوطن من شرورهم[٢٧] .

ويأتي عمادالدين الاصفهاني (ت ٥٩٧) في قمة المناهضين ، المتلهفين لاخراج الافرنج من الشام ، واخذ الثأر للشهداء الذين سقطوا صرعى في الحروب التي دارت رحاها على الارض المقدسة وما يحيط بها . فلا نكاد نجد له قصيدة في مدح نورالدين محمود ، او خلفه صلاحالدين الايوبي ، او احد قواد الحروب وأمرائها ، الا وفيها استثارة ودعوة للمسير الى البيت المقدس وفك اغلاله وكسر قيوده . فهو يستنهض نورالدين محمودا سنة ٥٦٣ للهجرة حينما استعاد مدينة « منبج » من حاكمها المعروف بابن حسان الذي ساءت سيرته ، وكثرت الشكاية منه ، ويعجله لغزو الخصم في عقر داره ، واجتثاثه من اصوله التي ثبتها بالنار والحديد ، ويدعوه ان يعرج على « طرابلس » و « نابلس » ، وهما من المدن الرئيسية التي عض الصليبيون عليها بنواجذهم ، واهانوا عزتها وكرامتها ببطشهم ، فيقول[٢٨] :

أبشرْ فبيتُ القدسِ يتلو منبجاً
ولمنبجٍ لسواهُ كالأنموذجِ
ما أعجزتكَ الشهبُ في أبراجها
طلباً ، فكيف خوارجٌ في أبرجِ ؟

فانهضْ الى البيتِ المقدسِ غازياً
وعلى طرابلسٍ ونابلسٍ عجِ
قد سرْتَ في الإسلامِ أحسنَ سيرةٍ
مأثورةٍ وسلكتَ أوضحَ منهجِ

واستغل الشاعر — في السنة نفسها — اقدام اسدالدين شيركوه بن شاذي (ت ٥٦٤) عم صلاحالدين الايوبي ، بايعاز من نورالدين محمود ، على فتح مصر ، وهنأه بقصيدة مطلعها[٢٩] :

بالجدِّ ما أدركتَ لا اللعبِ
كم راحةٍ جُنيتْ مِنْ دوحةِ التعبِ

وهي قصيدة حماسية ، تناول الشاعر فيها الجهود التي بذلها في توحيد مصر والشام ، واهمية ذلك التوحيد في حصار الصليبيين وضربهم ، ورجا ان يكون سبيل خير لفتح البيت المقدس :

فتحتَ مصرَ ، وأرجو أن تصيرَ بها
ميسراً فتح بيت القدس عن كثبِ

وفي خاتمة القصيدة حذره من الركون الى نشوة النصر ، واهمال الخصم يسرح ويمرح ، وشبهه بالافعى التي اصيب ذنبها دون رأسها ، فهي تلدغ ما دامت تسعى على الارض :

لا تقطعنْ ذنبَ الأفعى وترسلَها
فالحزمُ عندي قطعُ الرأْسِ كالذنبِ[٣٠]

ووجه ابو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله (ت ٥٧١) قصيدة الى نورالدين محمود هنأهفيها بالظفر العظيم الذي احرزه جيشه بقيادة شيركوه في الاستيلاء على مصر وضمها الى الشام ، وعد هذا العمل قوة للمسلمين ونصرا

(٢٦) انظر ديوان طلائع بن رزيك ص ٨٥ ، ١٠٨ .
(٢٧) انظر مقدمة ديوان اسامة بن منقذ ص ٦ ، وأسامة بن منقذ بطل الحروب الصليبية ص ١٩ — ٧٦ .
(٢٨) الروضتين ١ : ١٥٠ .

(٢٩) سنا البرق الشامي ١ : ٧٩ ، الروضتين ١ : ١٥٩ ، شفاء القلوب ص ٤٢ .
(٣٠) أصل البيت لأبي أذينة ابن عم الأسود بن المنذر بن النعمان (تاريخ أبي الفداء ١ : ١٧٤) .
لا تقطعن ذنب الافعى وترسلها
ان كنت شهما فاتبع راسها الذنبا

لهم ، ومجالا رحبا للهجوم على مغتصبي (القدس) والانقضاض عليهم . يقول(٣١) :

وإنْ بذلتَ لفتحِ القدسِ مُحتسباً
للأجرِ ، جوزيتَ أجراً غيرَ محتسبِ
والأجرُ في ذاكَ عندَ اللهِ مرتقبٌ
فيما يثيبُ عليه خير مرتقبِ
ولست تُعذرُ في تركِ الجهادِ وقد
أصبحتَ تملكُ مِن مصرَ الى حلبِ
فأحزمُ الناسِ من قوّى عزيمتَهُ
حتى ينالَ بها العالي مِن الرتبِ
فالجَدُّ والجِدُّ مقرونان في قرنٍ
والحزمُ في العزمِ والإدراكُ في الطلبِ

انه يشد من أزر نورالدين محمود ، ويقوي عزيمته ، ويبعث فيه روح النضال والكفاح لادراك الطلب وتقيق الامنية التي عقد العزم عليها منذ تسلمه مقاليد الحكم في الشام ، وتوليه قيادة الجيوش التي نذرت نفسها في سبيل احقاق الحق وازهاق الباطل وتثبيت اقدام المسلمين في الديار التي ذهبت ضحية الخور والضعف .

وقد شاء القدر ان يقضي نورالدين محمود نحبه سنة ٥٦٩ للهجرة دون الوصول الى الهدف المنشود . ولكن الله عوض عنه رجلا آخر حمل رسالة الدفاع عن الحق وتحرير البقاع المغتصبة خاصة (القدس) بكل امانة ، الا وهو البطل المقدام صلاح‌الدين يوسف بن أيوب .

وكانت ريح الفتن قد عصفت بعد وفاة نورالدين محمود ، وكادت تؤدي الى ضياع ذلك الجهد العظيم الذي بذل في دحر الصليبيين وجلائهم من مدن عديدة كانت تحت امرتهم . ولكن حنكة صلاح‌الدين الايوبي وكياسته استطاعت ان تراب الصدع ، وتعيد الصف الاسلامي الى تماسكه وترابطه ، ليقف بقدمين ثابتتين امام الطواريء التي ستتجسد في مسيرة حرب التحرير .

(٣١) الخريدة ــ قسم شعراء الشام ــ ١ : ٢٧٧ .

بدأ صلاح‌الدين ــ أول ما بدأ ــ بتصفية جيوب الخصوم ، وتوحيد ما يحيط بفلسطين ، وتقوية الجيش عددا وعدة . وقد اخذ منه ذلك وقتا تجاوز خمسة عشر عاما . ولم يهمل الشعراء خلال هذه المدة تذكيره بمقام (القدس) وتحفيزه على تحريرها ، وان كان وكده الجهاد والتحرير ، يقول قاضية ابن شداد (ت ٦٣٢) : « كان حبه للجهاد ، والشغف به ، قد استولى على قلبه ، وسائر جوانحه ، استيلاء عظيما ، بحيث ما كان له حديث الا فيه ، ولا نظر الا في آلته . ولا كان له اهتمام الا برجاله ، ولا ميل الا الى من يذكره ويحث عليه . ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله اهله واولاده ووطنه وسكنه وسائر ملاذه . وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهبّ بها الرياح يمنة ويسرة »(٣٢) .

ومن أكثر الشعراء الذين شغلت قضية (القدس) بالهم ، وسيطرت على جوارحهم ، كاتب صلاح الدين وأمين سره العماد الاصفهاني . يقول في قصيدته الاولى التي هنأه فيها بإقامة دولته(٣٣) :

ولا تهملوا البيتَ المقدّس ، واعزموا
على فتحهِ غازينَ ،وافترعوا البِكرا

وكان رأي عمارة اليمني (ت ٥٦٩) ان يبدأ بتحرير (القدس) قبل غيرها من المدن الشامية المحتلّة ؛ لأنها المفتاح الكبير لفتح باب الشام . فقال لصلاح الدين الأيوبي(٣٤) .

وهيّجتَ للبيتِ المقدّسِ لوعةً
يطولُ بها منه إليكَ التشوّقُ
هو البيتُ ، إنْ تفتحه ، واللهُ فاعلٌ
فما بعده بابٌ مِن الشامِ مغلقُ

ويبدو أن صلاح الدين الأيوبي ــ وهو قائد حرب مُجرّب ــ كان يرى بتر الأجنحة في باديء الأمر أولى من طعن القلب والإجهاز عليه . فحرّر المدن الشامية التي كانت حزاماً واقياً للقدس ، وادخل الاطمئنان الى قلوب ساكنيها ، وبشرهم

(٣٢) النوادر السلطانية ص ٢١ .
(٣٣) الروضتين ١ : ١٧٩ .
(٣٤) الروضتين ١ : ١٩٣ .

بمواصلة الزحف والنضال ، وحرب التحرير ، وعدم التهاون مع العدو حتى يتمّ جلاءهم .

وانتهز الشعراء مواقف صلاح الدين المشرفة ، واستقبلوه بقصائدهم الحماسية . فحينما فتح حمص وبعلبك ، نهض عماد الدين الأصفهاني ، وانشد بين يديه ، وعلى مسمع من قواده وجنوده قصيدة مطلعها(٣٥) :

بفتوحِ عصركَ يفخرُ الإسلامُ
وبنورِ نصركَ تشرقُ الأيامُ

وطلب منه ان يكلل هذا النصر بفتح (القدس) كي يزهو الاسلام ، ويتألّق نوره الذي خبا لحقبة من الزمن في ظل القهر والاستعباد :

فتملَّ فتحكَ ،وافتحِ القدسَ الذي
بحصولهِ لفتوحكَ الإتمامُ
دُمْ للعلى حتى يدومَ نظامُها
واسلمْ ، يعزُّ بنصركَ الإسلامُ

ويكرر هذا الطلب في مدحة اخرى حينما يعود صلاح الدين الأيوبي الى القاهرة ، ويحثّه على المسير الى (القدس) ، وإطلاق سهامه في صدور الذين سلبوها ظلماً وعدواناً ، واعمال سيوفه في رقابهم ، وسفك دمائهم(٣٦) :

فسِرْ وافتحِ القدسَ ، واسفكْ بهِ
دماءً متى تجرها تنظفِ

ويستنهضه في قصيدة ثالثة ليشفي غليل المسلمين الذين طال شوقهم الى حبيبتهم المدينة المقدسة، ويُسمّي نجاتها وخلاصها من الصليبيين ب « فتح الفتوح » ، ويقول له : إن كان ذلك عسيراً عليك ، فسر إليها ، وتوكّل على الله ، فهو حسبك(٣٧) :

نهوضاً الى القدسِ يُشفَى الغليل
بفتحِ الفتوحِ ، وماذا عسيرُ ؟

سلِ اللهَ تسهيلَ صعبِ الخطوبِ
فهو على كلِّ شيءٍ قديرُ

وهكذا يلهج العماد الأصفهاني بذكر البيت المقدّس في القصائد التي يلقيها أمام صلاح الدين الأيوبي ، وينبهه بضرورة تحريره ، وفك أسره من القيود التي طال به الزمن .

وكان بهاء الدين أبو الحسن علي بن رستم الساعاتي (ت ٦٠٤) من الغيورين على فلسطين يتنسَّم اخبارها ، ويتتبَّع حركات الجيوش المحاربة وتنقلاتها ، ويتطلَّع لليوم الذي تتحرر فيه (القدس) وتنجلي الكآبة التي هيمنت على النفوس ورانت على الأفئدة . فنراه يبعث الى صلاح الدين الأيوبي قصيدة يهنئه بفتح « طبرية » وطرد الصليبيين منها ، وهي من المواقع الحصينة التي اتخذوها درعاً لوقاية القدس ، مطلعها(٣٨) :

جَلَتْ عزماتكَ الفتحَ المبينا
فقد قرَّتْ عيونُ المؤمنينا

إن فتح « طبرية » فرحة كبيرة للمسلمين ، ونكسة رهيبة للصليبيين . سرّ قلوباً ، وأبكى عيوناً . طمأن نفوساً ، وأقلق مضاجعاً .

فيا للهِ كم سرَّتْ قلوباً ؟!
ويا للهِ كم أبكتْ عيونا ؟!

ويشير الشاعر الى ابتهاج مدينة (القدس) بهذا الفتح المبين ، وتفاؤلها بيوم الخلاص ، بعد أن رأى جهود صلاح الدين الأيوبي الجبارة في المسيرة التحررية التي بداها منذ أن قاد الجيوش الجرارة برباطة جأش وقوة عزيمة وأدار الرحى الكبيرة التي طحنتهم ومزّقتهم شرّ ممزق .

تهزُّ معاطف القدس ابتهاجاً
وتُرضي عنك مكة والحجونا
فلو أن الجهادَ يطيقُ نطقاً
لنادتكَ : ادخلوها آمنينا

(٣٥) مفرج الكروب ٢ : ٣٠ .
(٣٦) مفرج الكروب ٢ : ٥٧ .
(٣٧) الروضتين ١ : ١٤٠ .

(٣٨) ديوان ابن الساعاتي ٢ : ٤٠٦ .

فقلبُ القدسِ مسرورٌ ولولا
سطاكَ لكان مكتئباً حزينا
أدرتَ على الفرنجِ — وقد تلاقتْ
جموعُهم عليكَ — رحى طحونا

إن استخلاص (القدس) من اكبر الأماني واعزها عند المسلمين آنذاك ، وكان الشعراء لسان حالهم ، والمعبر الصادق عن دخائل نفوسهم ؛ لذلك ما فتئوا يحرضون صلاح الدين الأيوبي ويستنهضونه ، بل ويُحرّضون رجال الأسرة الأيوبية ممن قاد الجيوش ، وحمل الوية الكفاح والنضال ، كما نرى ذلك في قصيدة العماد الأصفهاني السينية التي مدح بها في سنة ٥٨١ للهجرة الفارس الشاعر تقي الدين عمر صاحب حماة (ت ٥٨٧) ، وهي في مئة واربعين بيتاً ، مطلعها(٣٩) :

عفااللهُ عنكم، عن ذوي الشوق نفسوا
فقد تلفتْ منا قلوبٌ وأنفسُ

وتوسّع الشاعر في بيان مكانه الممدوح ، واسرته ، وجهاده في سبيل نصره دين الله ، وتثبيت مكانة المسلمين التي تزعزعت بعد توغل الصليبيين في ديارهم . وأشار الى البيت المقدس الذي لا يفتح — حسب قوله — إلاّ بمفاتيح الأيوبيين ، فقال :

ولا يفتحُ البيتَ المقدّسَ غيرُكم
وبيتكُم مِن كلِّ عابٍ مقدّسِ

وكان للشعراء العراقيين دور بارز في الحروب التي دارت على أرض الشام ، فقد آزر بضعة وعشرون شاعراً الدولة الأيوبية ، ووقفوا بجانب ملوكها وولادها في كفاحهم ضد الغزاة المعتدين(٤٠) . وانتجع عدد منهم بلاد الشام ، ورابطوا مع اخوانهم على خطوط النار ، وذادوا بسيوفهم والسنتهم عن الحق العربي ، مثل الأمير نجم الدين محمود بن الحسن بن نبهان العراقي ، الذي مدح صلاح الدين الأيوبي بعد قصائد ، من ذلك قصيدة مطلعها(٤١) :

هنيئاً صلاحَ الدينِ بالفتحِ والنصرِ
ونيلِ الأماني الغرِّ والفتكةِ البكرِ

وحثَّ الشاعرُ الممدوحَ على إزاحة الإفرنج من البقاع التي احتلوها ، ودعاه الى أن يملك الأرض ، ويقيم دولة كبرى تتحدّى كلَّ طامع وغادر :

فلا ترضَ منهم بعدها بذلَ طاعةٍ
فما خُلقوا إلاّ على شيمةِ الغدرِ
فسرْ واملكِ الأرضَ التي لو تركتها
لأغضتْ عيونُ المجدِ منها على أمرِ

وثمة شعراء عراقيون لم يرتحلوا الى بلاد الشام ، ولم يشاركوا في الحروب ، وإنما كانوا يبعثون قصائدهم الى المدوحين ، يحثونهم فيها على الجهاد وانتزاع الأراضي من الغاصبين منهم سبط ابن التعاويذي (ت ٥٨٣) الذي مدح صلاح الدين الأيوبي وهنأه بعدة قصائد دون أن يراه ويلتقي به ، من ذلك قوله في قصيدة طويلة(٤٢) :

فاصبحْ بلادَ الرومِ منكَ بغارةٍ
للنصرِ فيها رائدٌ لا يكذبُ
وانكحْ صوارمكَ الثغورَ يزورُها
في كلِّ يومٍ من جيوشكَ مِقْنَبُ
حتى يُرى للمشرفيّةِ مَطْعَمٌ
بالفتكِ من تلكَ الدماءِ ومشربُ
فالعدلُ ليس بناجعٍ أو تنثني
وغِرارُ نصلكَ بالنجيعِ مُخضّبُ

وهكذا كان الشعراء — في الشرق والغرب — يحثون على القتال والنزاع لتحرير ديار الشام ، خاصة (البيت المقدّس) من الإفرنج . فلا تكاد

(٣٩) الروضتين ٢ : ٧١ .
(٤٠) انظر أسماءهم ، ومواضع تراجمهم في كتاب (الشعر العربي في العراق من سقوط السلاجقة حتى سقوط بغداد) ص ١٣٦ — ١٣٩ .
(٤١) الروضتين ٢ : ١٢ .
(٤٢) ديوان سبط ابن التعاويذي ص ٢٥ .

نجد قصيدة في المدح أو التهنئة إلاّ وفيها أبيات تحرض وتستنهض على المسير نحو قبلة المسلمين الأولى ، وانزال شعار الصليبيين منها ، ورفع شعار الإسلام ، واعادة صوت « الله أكبر » الى مآذنها .

ويحدثنا المؤرخون عن اثر هذا الشعر في نفوس القادة ، خاصّة صلاح الدين الأيوبي ، الذي كان يتذوق الشعر ، ويكثر من إنشاده . من ذلك ما يرويه قاضي القضاة مجير الدين الحنبلي ، فيقول(٤٣) : « حكي ان السلطان صلاح الدين لما كثرت فتوحاته في السواحل ، وأرجع فيهم بسهامه وسطوته ، وكان لا يتجاسر على فتح بيت المقدس ، لكثرة ما فيه من الأبطال والعدّة . . . وكان في بيت المقدس شاب مأسور من أهل دمشق ، كتب هذه الأبيات ، وأرسل بها الى الملك صلاح الدين على لسان القدس : فقال :

يا أيُّها الملكُ الذي
لمعالمِ الإفرنجِ نكَّسْ
جاءت إليكَ ظلامةٌ
تَسْعَى من البيتِ المقدسْ
كلُّ المساجدِ طُهِّرَتْ
وأنا ــ على شرفي ــ مُنَجَّسْ

فكانت هذه الأبيات هي الداعية له الى فتح بيت المقدس » . إن هذا ــ وإن كان لا يخلو من المبالغة والتهويل ــ يدل على اهمية دور الشعر في دفع القادة آنذاك الى سوح المعركة ، ومحاربة الخصم ومقارعته ، وإنهاء احتلاله للأرض التي سطا عليها زمناً طويلاً ، وجنى ثمارها ظلماً وعدواناً .

دور الشعر بعد تحرير القدس :

مضى على احتلال (القدس) تسعون سنة ، وهي تعاني القهر والاستعباد، والظلم والاستبداد، وتنتظر مجيء الرجال الغيورين لتخليصها وتحريرها . وطال هذا الانتظار الى ان برز صلاح الدين في حلبة الصراع ، وميدان القراع ،فاستطاع ان يضرب الصليبيين بعنف ، ويردي الكثيرين منهم ، وينتزع من ايديهم القلاع والحصون . ولما حانت سنة ٥٨٣ للهجرة ، وقف على مشارف (القدس) بجيوشه الباسلة ، ونادى فيهم بصوت عال(٤٤) : « هذا اليوم الذي كنت أنتظره ، وقد جمع الله لنا العساكر ، وانا رجل قد كبرت ، ولا ادري متى اجلي ، فاغتنموا هذا اليوم ، وقاتلوا لله تعالى ، لا من أجلي » . وحينما سمع الإفرنج تصميم صلاح الدين الأيوبي على محاربتهم ، وتأكيد جلائهم ، خرجوا إليه في موضع يقال له (حطّين) . وكان عددهم خمسة وأربعين الفاً ، وزاده بعضهم الى ثلاثة وستين الفاً ، بين فارس وراجل . اما عدد المسلمين فكان اثني عشر الف مقاتل . واصطدم الطرفان ، وتضارب الجمعان ، واحتدم القتال ، واشتد الجلاد بضراوة ، انكسر الأعداء شرّ كسرة ، وقتل منهم الآلاف ، وانهزم الباقون لا يلوون على شيء . وقد احدث هذا النصر رنة فرح تردّدَ صداها في انحاء العالم الإسلامي .وكتب العماد الأصفهاني على لسان صلاح الدين الأيوبي « في ذلك اليوم سبعين كتاب بشارة ، كل كتاب بمعنى بديع(٤٥) » .

ووقف الشعراء يمدحون صلاح الدين الأيوبي ، ويفتخرون به ، ويثمنون جهوده . منهم وزيره في الشام العماد الأصفهاني ، يقول مخاطباً القائد المنتصر(٤٦) :

ونعمَ مجالُ الخيلِ حِطينُ لم تكنْ
معاركُها للجردِ ضرساً ولا دهسا
غداةَ أسودُ الحربِ معتقلو القنا
أساودُ تبغي من نحورِ العِدا نهسا
كسرتهمُ إذ صحَّ عزمكَ فيهمُ
ونكستهمْ إذ صارَ سهمهمُ نكسا
بواقعةٍ رَجَّتْ بها الأرضُ جيشَهم
دماراً كما بسَّتْ جبالهم بسَّا

(٤٣) الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ١ : ٣١٨ .

(٤٤) الروضتين ٢ : ٨٤ .
(٤٥) الروضتين ٢ : ٩٦ .
(٤٦) الروضتين ٢ : ٨٣ .

بطونُ ذئاب الأرضِ صارت قبورهم
ولم ترض أرضٌ أن تكون لهم رمسا
وطارت على نارِ المواضي فراشُهم
صلاءً فزادتْ مِن خمورهم قبسا
وقد خشعتْ أصواتُ أبطالها فما
يعي السمع إلاّ من صليلِ الظُبا همسا
تقادُ بدأماءِ الدماءِ ملوكهم
أسارى كسفنِ اليم نطّتْ بها القلسا
سبايا بلادِ اللهِ مملوءَة بها
وقد شريت بخساً ،وقد عرضت نخسا
يطافُ بها الأسواق لا راغب بها
لكثرتها ، كم كثرةٍ توجبُ الوكسا

والقصيدة طويلة ، وهي – وإن بدا عليها التصنع والتكلف – تعطينا صورة للفرسان المغيرين على العدو المتخاذل ، والقتلى المتناثرة اشلاؤهم في ساحة الوغى ، والأسارى وهم يساقون للبيع بأبخس الأثمان .

لقد عمّت الفرحة بهذا النصر الباهر ، وهنّأ المسلمون بعضهم بعضاً كما قال فتيان الشاغوري(٤٧) :

لم تخلُ سمعاً من هناءِ مهنيءٍ
للمسلمينَ ،ومِنْ سماعِ مُبَشِّرِ

لم يتكيء صلاح الدين الأيوبي على هذا الفوز ، ويخلد الى الراحة ، ويعط فرصة للأفرنج كي يستيفيقوا من سكرتهم ، ويعيدوا نشاطهم ، ويجمعوا شتات شملهم ، ويستنجدوا بمموليهم – مادياً ومعنوياً – في أوربا ، بل مضى الى بيت المقدس وفتحه دونما عناء أو مقاومة كبيرة ، وأسر ملكهم ، ودخل المسجد الأقصى ، وصلّى فيه ، وشكر الله على نصره ، ونصب المنبر الذي هياه نور الدين محمود لمثل هذا اليوم .

(٤٧) ديوان فتيان الشاغوري ص ١٤٧ .

واقبل الشعراء على صلاح الدين الأيوبي من كلّ مكان ، واخذوا يتبارون في نظم آيات المدح له ، حتى صار انشودتهم ، وتسابقوا في الدخول عليه ، والمثول بين يديه . قال ابن العديم(٤٨) : « ولم يجتمع بباب احدٍ من الملوك بعد سيف الدولة بن حمدان ما اجتمع ببابه – رحمه الله – وزاد على سيف الدولة في الحباء والفضل والعطاء » . وأول شاعر دخل عليه ، وهنأه بالنصر المبين ، قائده وابن اخيه تقي الدين عمر (ت ٥٨٧) وانشده قصيدة مطلعها(٤٩) :

دَعْ مهجةَ المشتاقِ مَعْ أهوائِها
يا لائمي ما أنتَ مِنْ نُصحائها

ومنها :

جاءَتكَ أرضُ القدسِ تخطبُ ناكحاً
يا كفأها ، ما العُذْرُ مِنْ عُذرائها
زُفّتْ إليكَ عروسَ خِدْرٍ تجتلَى
ما بينَ أعبُدِها وبينَ إمائها
إيهٍ صلاحَ الدينِ خُذْها غادةً
بكراً ، ملوكُ الأرضِ مِنْ رقبائها
كم خاطبٍ لجمالها قد ردَّهُ
عن نيلها أنْ ليس مِنْ أكفائها

من أحب الأماني لدى الرجال الشريف – بالحدود التي قيّدة الشرع بها – أن ينال الزوجة الجميلة العفيفة التي يقضي حياته معها . فهي اثمن شيء عنده ، يحرص عليها ، ويحافظ على شرفها وعزّتها ،ويمنع عنها عوادي الدهر وغوائله؛ لذلك شبه تقي الدين عمر (القدس) بالفتاة اللطيفة التي تطمع بالرجل الذي يليق بها ، ويكون من وزنها ، فلم تجد كفئاً لها غير صلاح الدين الأيوبي ، فزفّت إليه مجلوّة بين خدمها وإمائها لتعيش تحت ظله هانئة مسرورة ، وقد لا حظنا هذه الصورة عند اكثر من شاعر ، فهي عند ابن الساعاتي(٥٠) :

(٤٨) زبدة الحلب من تاريخ حلب ٣ : ١٢٥ .
(٤٩) الخريدة – بداية شعراء الشام – ص ٨٥ ، مفرج الكروب ٢ : ٢٣٦ ، كنز الدرر ٧ : ٩١ .
(٥٠) ديوان ابن الساعاتي ٢ : ١١٨ .

رشيقةُ القدِّ لا تسمو إليه يدٌ
أسيلةُ الخدِّ لا تدنو من القبلِ
كم مقلةٍ سهرتْ وجداً بمقلتها
لم تكتحلْ بكرًى شوقاً الى الكحلِ
بكرُ المعاقلِ فاخْطبها مكابرةً
بكلِّ ألمى أصمِّ الكعبِ معتدلِ
فما سواكَ لها بعلٌ وقد عطلتْ
فحلّها بتلافيها من العطلِ

اليس هذا وصفاً لفتاة حسناء قدّمه الشاعر لصلاح الدين الأيوبي ؟ بلى ، فهي ممشوقة القد ، أسيلة الخد ، ممنعة رزان ، تبارى الرجال لخطبتها ، وتسابقوا ليحظوا بها ، تولعوا بها ، وسهرت عيونهم شوقاً الى رؤية جمالها . وقال الشاعر لصلاح الدين الأيوبي : انت كفء لها ، وخليق بها ، فتقدّم إليها ، وحلّ جيدها العاطل.

واقبل شعراء الشام على صلاح الدين الأيوبي زرافات ووحدانا ، منشدين افراح الظفر ، ومرددين اهازيج النصر . منهم أبو محمد فتيان ابن علي الأسدي الشاغوري (ت ٦١٥) الذي تفتّق لسانه بعدة قصائد(٥١) ، حكى فيها ملحمة البطولة والشجاعة ، والتضحية والفداء . منها هذه الصورة لجنود العدو القتلى ، وكأنهم تماثيل من كافور ، ردعن بعنبر ، وقد داستها سنابك خيول صلاح الدين الأيوبي ، وبغات الطير تتهاوى عليها مقتلعة العيون الزرق التي تشبه فصوص الجوهر النفيس(٥٢) :

صرعى كأنّهم تماثيلٌ من الـ
ـكافورِ ،مِنْ دمهم رُدِعْنَ بعنبرِ
فالخيلُ لا تمشي بها إلاّ على
هامٍ منضّدَةٍ وشَعرٍ أشقرِ
نَهبتْ عُفاةُ الطيرِ من حدَقٍ بها
زُرقٍ فصوصاً من نفيسِ الجوهرِ

وينعته في قصيدة اخرى تجاوزت مئة بيت بربِّ الملاحم التي لم يؤرخ العلماء مثلها في قديم الأعصر والأزمان ، ويسمّي الساحل الشامي الذي طرد منه صلاح الدين الأيوبي الصليبيين ورماهم في البحر ليعودوا الى أوطانهم التي جاؤوا منها بـ « الطراز الأخضر » ، وينوّه بجهوده الجبارة التي بذلها في سبيل انقاذ القدس(٥٣) :

ربُّ الملاحمِ ، لم يؤرخ مثلها الـ
علماءُ قِدماً في قديمِ الأعصرِ
خُلعتْ عليه خلعةُ الملكِ التي
زيدتْ بهاءً بالطرازِ الأخضرِ
واستنقذ البيتَ المقدّسَ عَنْوَةً
من كلِّ ذي نجسٍ بكلِّ مُطَهَّرِ
وأريتهم لما التقى الجمعان بالـ
بيت المقدّسِ هولَ يومِ المحشرِ
ورددتَ دينَ اللهِ بعدَ قطوبهِ
بالمسجدِ الأقصى بوجهٍ مُسفرِ
وأعدتَ ما أبداهُ قلبكَ فاتحاً
عمر ، فأنتَ شريكه في المتجرِ
حتى جمعتَ لمعشرِ الإسلام بيـ
ـنَ الصخرةِ العُظمى وبينَ المشعرِ
فلصخرةِ البيتِ المقدّسِ كفؤها الـ
ـحجرُ المفضلُ عند أفضلِ معشرِ

واهتز رشيد الدين عبدالرحمن بن بدر النابلسي (ت ٦١٩) بهذا النصر ، وجادت قريحته بقصيدة عبَّرَ فيها عن نبضات قلوب المسلمين ، مطلعها(٥٤) :

هـذا الذي كانت الآمالُ تنتظرُ
فليوفِ للهِ أقوامٌ بما نذروا

(٥١) ديوان فتيان الشاغوري ص ٦٩ ، ١٤٠ ، ١٤٨ ، ٢١٥
(٥٢) ديوان فتيان الشاغوري ص ١٤٥ .
(٥٣) ديوان فتيان الشاغوري ص ١٤٠ .
(٥٤) الروضتين ٢ : ١١٨ .

لقد قرّت العيون ، واطمأنت الجنوب في المضاجع ، بعد ان مرّت على المسلمين قرابة مئة سنة ، تحملوا فيها قسوة المحتلين وبغيهم ، وسياط فرسان الصليبيين وجورهم .

الآن قرَّتْ جنوبٌ في مضاجعِها
ونامَ مَنْ لم يزلْ حلفاً له السهرُ

ويا لعظيم البهجة بعد أن تَحرَّرت (القدس) من قيود الافرنج ، ورفرفت أعلام المسلمين عليها ، وجلجل صوت « الله اكبر » في كلِّ جانب منها :

يابهجةَ القدسِ إذ أضحى به علمُ ال
إسلامِ من بعد طيٍ وهو منتشرُ
اللهُ أكبرُ ، صوتٌ تقشعرُّ له
شمُّ الذُّرا ، وتكادُ الأرضُ تنفطرُ

وخشي الشاعر أن تقوم للإفرنج قائمة جديدة بعد أن خرجوا من (القدس) وتمركزوا في بعض أجزاء الساحل الشامي ، فنراه يطلب من صلاح الدين الأيوبي أن يستأنف القتال ، ويلاحق الأعداء، ويلهب ظهورهم بسياطه ، لكي لا يبقى لهم أمل في العودة ثانية الى المواقع التي تخلّوا عنها بعد احتلالهم لها حين من الزمن :

يا مالكَ الأرضِ مهدُّها فما أحدٌ
سواكَ من قائمٍ للمهدِ ينتظرُ
ما اخضرَ هذاالطرازُ الساحليُّ ثرىً
إلاّ لتعلو به أعلامُكَ الصفرُ

ولم يكتف عماد الدين الأصفهاني ، الذي مدح صلاح الدين ، وبارك خطواته(٥٥) ، بتحرير ديار الشام والسيطرة عليها ، بل طلب منه ان يمدَّ سيادته على الشرق عامة ، ويقيم دولة كبيرة تتحدى كلَّ من يريد أن يمسها بسوء ، أو ينال منها بأذى(٥٦) :

وإنَّ بلادَ الشرقِ مظلمةٌ ، فخذْ
خراسانَ والنهرينِ والتركَ والفرُسا

(٥٥) انظر الروضتين ٢ : ١٠١ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ .
(٥٦) الروضتين ٢ : ١٠٢ .

وشارك الشعراء المصريون بفرحة النصر والجلاء ، وزفو التهاني الى صلاح الدين الأيوبي ، منهم نقيب الأشراف النسابة محمد بن أسعد بن علي المعروف بالجواني (ت ٥٨٨) ، ومطلع قصيدته(٥٧) :

أترى مناماً ما بعينيَ أبصرُ ؟
القدسُ يفتحُ ،والفرنجةُ تكسَرُ !!

لقد أخذه العجب ، واندهل من خبر الفتح ، وانكسار الإفرنج وهزيمتهم ، وسأل نفسه : أهو حقيقة أم حلم تراءى له ؟ وتمالك أعصابه ، وتيقّنَ من صحة النبأ ، وتباهى بهذا الإنجاز الكبير ، وافتخر به ، وعدَّه ظفراً عظيماً ما بعده من ظفر . ووضع صلاح الدين الأيوبي في مقام عمر الفاروق ، وعثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب ـ رضي الله عنهم ـ في صدق النية ، وقوّة العزيمة ، وصلابة الإيمان :

فتحَ الشامُ ،وطهّرَ القدسُ الذي
هو في القيامةِ للأنامِ المحشرُ(٥٨)
يا يوسفَ الصديقُ أنتَ لفتحها
فاروقُها عمرُ الإمامُ الأطهرُ
ولأنتَ عثمانُ المشرَّفُ بعدَهُ
ولأنتَ في نصرِ النبوّةِ حيدرُ

وشارك بهاء الدين ابن الساعاتي الشاعر المصري في هذه الفرحة ، ونظم قصيدة تساءل فيها عن العجز الذي أصاب الألسن ، وقد شاهدت الأعين الفتح الكبير ، ودوّت أنباؤه الآفاق ، وطرقت أخباره الآذان . وتمنّى أن ينهض الفاتح الأول عمر ابن الخطاب كي يرى ما صنعه الخلف الصالح ، ومقدار التضحية التي قدّمها لاسترجاع ما سلبه الإفرنج . إنَّ صدى الفتح ـ في نظر الشاعر ـ تردَّدَ في كلِّ مكان ، حتى في الكعبة الشريفة بمكة ، ومثوى الرسول الكريم في يثرب . وقدّم لنا صورة

(٥٧) مفرج الكروب ١ : ٢٣٣ .
(٥٨) من الطريف أن يعرض الشاعر لهذه القصة الشعبية التي تقول : ان القدس هو المكان الذي سيحشر فيه الناس يوم القيامة (دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين ص ٩٤) .

بديعة ، إذ جعل للدين ـ بعد انتصار الجيوش الإسلامية ـ ثغراً مفترّاً تتهاوى عليه ألسنة الأغماد لثماً وتقبيلا . يقول(٥٩) :

أعيّاً ، وقد عاينتمُ الآيةَ العظمى ؟
لأيةِ حالٍ تدخرُ النثرَ والنظما
وقدساغَ فتحُ القدسِ في كلّ منطقٍ
وشاعَ إلى أن أسمعَ الأسلَ الصّما
فليت فتى الخطابِ شاهدَ فتحَها
فيشهدَ أنّ السيفَ مِن يوسفَ أصمى
حبا مكّةَ الحسنى ، وثنّى بيثربٍ
وأسمعَ ذيّاكَ الضريحَ وما ضمّا
وما كان إلاّ الداءَ أعيا دواؤه
وغيرُ الحسامِ العضبِ لايحسنُ الحسما
وأصبحَ ثغرُ الدين جذلانَ باسماً
وألسنةُ الأغمادِ تُوسعهُ لثما

ونرى شاعراً ثالثاً من مصر ، وهو القاضي السعيد ابن سناء الملك (ت ٦٠٨) يوجّه تهنئة الى صلاح الدين الأيوبي ، مرصّعة بصورة طريفة ، إذ يشبه فتح (القدس) ودخولها بوليمة عرس وطرب ، يرقص السيف فيها ويغني ، وتشاركها عرائس مدن الشام أيضاً ، وتتهادى أشجار النخيل الباسقة التي تحمل ثمار الغد المشرق ، والأمل المنشود(٦٠) :

صُنِعَتْ فيهم وليمةُ عرسٍ
رقصَ المشرفيُّ فيها وغنّى
وتهادَتْ عرائسُ المدنِ نخلاً
وثمارُ الآمالِ منهنّ تُجنى
لا تخصُّ الشامُ فيكَ التهاني
كلُّ صقعٍ ، وكلُّ قطرٍ يُهنّى

وشاعر رابع يدعى الحسن بن علي الجويني (ت ٥٨٦) البغدادي الأصل ، المصري الدار ، يسكر بخمرة الفرح ، وينظم قصيدة ، يشارك فيها إخوانه الشعراء الذين ابتهجوا بفتح (القدس) مطلعها(٦١) :

جندُ السماءِ لهذا الملكِ أعوانُ
من شكّ فيهم فهذا الفتحُ برهانُ

وعدّ الشاعر هذا الفتح من فتوح الأنبياء الذين بعثهم الله لإصلاح العباد ، وإزالة الفساد ، ذلك الفتح الذي أضحت فيه ملوك الإفرنج صيداً في شِباك صلاح الدين الأيوبي المحكمة :

هذي الفتوحُ ، فتوحُ الأنبياءِ وما
لها سوى الشكرِ بالأفعالِ أثمانُ
أضحتْ ملوكُ الفرنجِ الصيدِ في يده
صيداً وما ضعفوا يوماً وما هانوا

لقد مرّت ـ كما ذكر الشاعر ـ تسعون سنة على الاحتلال الصليبي ، ودعوات الخلاص والنجاة تنطلق من الحناجر ، وقد بلغ صداها المدى دون جدوى ، وحينما برز صلاح الدين الأيوبي على مسرح الأحداث ، استجاب للنداء ، ولبّى دعوة البذل والفداء ، وخرج لمجابهة الأعداء ، وكان حليفه النجاح . وبالغ الشاعر في قيمة هذا الفتح واهميته ، وجعله في مصاف الفتوحات الاسلامية الأولى في عصر النبوّة ، ولولا تأخر زمنه ، لنزلت فيه آيات محكمات :

تسعونَ عاماً بلادُ الله تصرخُ والإ
سلامُ أنصارُه صمٌّ وعميانُ
فالآنَ لبّى صلاحُ الدين دعوتَهم
بأمرِ مَنْ هو للمعوانِ معوانُ
للناصرِ ادخرّتْ هذي الفتوحُ وما
سمتْ لها هممُ الأملاكِ مذ كانوا
لو أنّ ذا الفتحَ في عصرِ النبيِّ لقد
تنزّلتْ فيهِ آياتٌ وقرآنُ

(٥٩) ديوان ابن الساعاتي ٢ : ٤٠٧ .
(٦٠) ديوان ابن سناء الملك ص ٣٤٢ ، مفرج الكروب ٢ : ٢٣٤ .

(٦١) الحروب الصليبية وأثرها في الأدب ص ٢١٤ .

وهزّت نشوة النصر مشاعر شاعرين اندلسيين هما : الرحّالة المشهور ابن جبير (ت ٦١٤) ، وحكيم الزمان ابو الفضل عبدالمنعم بن عمر الجلياني (ت ٦٠٢) . أما الأول فقد نظم قصيدة مطلعها(٦٢) :

أطلّتْ على أفقِكَ الزاهرِ
سعودٌ من الفلكِ الدائرِ

تناول الشاعر الخطوات الجبّارة التي خطاها صلاح الدين الأيوبي في تحرير أرض المسلمين ، خاصّة (القدس) من قبضة الصليبيين ، والضربات القاصمة التي جعلتهم يولّون الأدبار . واشاد بصبره وجلده على مقارعتهم ، وسهره على مرضاة الله ، ونبذه ملذات الدنيا واطايب الحياة :

وجاهدت مجتهداً صابراً
فللهِ أجرُكَ من صابرِ
تبيتُ الملوكُ على فُرُشها
وترفلُ في الزَّرَدِ السابري
وتؤثرُ جاهدَ عيشِ الجهادِ
على طيبِ عيشهم الناضرِ
وتسهرُ ليلكَ في حقٍّ من
سيرضيكَ في جفنكَ الساهرِ
فتحتَ المقدسَ من أرضه
فعادتْ الى وصفِها الطاهرِ
وأعليتَ فيه منارَ الهدى
وأحييتَ من رسمهِ الدائرِ

ولا نجد في قصيدة ابن جبير – على ضعف مبناها – جدّة ، أو ابداعاً ، يناسبان جلال الموقف، وعظمة المناسبة ، وضخامة الفرحة ، وإنمّا هي معان عامة ، وصور سطحية جمعها الشاعر في إطار الوزن والقافية .

أما حكيم الزمان الجلياني ، فهو احد أصحاب صلاح الدين الأيوبي ، وقد رافقه في حروبه ، والف فيه كتاباً بعنوان « منادح الممادح ، وروض المآثر والمفاخر في خصائص الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن ايوب » . وله ديوان « المبشرات والقدسيات » . قال ابن ابي أصيبعة عنه(٦٣) : « هو نظم ، وتدبيج ، وكلام مطلق ، يشتمل على وصف الحروب والفتوح الجارية على يد صلاح الدين ابي المظفر يوسف بن أيوب فاتح مدينة بيت المقدس سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة » . وقد وصلت الينا مجموعة من قدسياته(٦٤) ، منها القدسية المعروفة ب « الفتحية الناصرية » ، واولها(٦٥) :

في باطنِ الغيبِ ما لا تدركُ الفكرُ
فذو البصيرةِ في الأحداثِ يعتبرُ

وصف الشاعر في هذه القدسية حال الإفرنج بعد وقوعهم في قبضة الأسد صلاح الدين الأيوبي ، وعدم استطاعتهم الإفلات منها :

أهوى إليهم صلاحُ الدينِ مفترساً
وهو الغضنفرُ أعدى ظفره الظفرُ
أملى عليهم ، فصاروا وسطَ كفته
كسربِ طيرٍ حواها القانصُ الذكرُ

واظهر صفات هذا البطل المغوار ، واخلاقه العالية ، وسلوكه مع اتباعه وخصومه . ثم تطرق الى الفتح الذي احرزه، ومكانته في نفوس المسلمين، وقرنه بفتوح القادسية زمن الخليفة عمر بن الخطاب رض الله عنه ، وشبّه انتصار الحقّ بالعرس ، وازهاق الباطل بالمأتم :

أما رأيتمْ فتوحَ القادسيةِ في
أكنافِ لوبيةٍ تجلى ، وذا عمرُ(٦٦)
والحقُّ يعرسُ ، والطغيانُ ينتحبُ
والكفرُ يطمسُ ، والإيمانُ مزدهرُ

(٦٢) الروضتين ٢ : ١٠٦ ، ابن جبير شاعراً ص ٥٠٢ .

(٦٣) عيون الأنباء ٣ : ٢٦٥ .
(٦٤) انظر الروضتين ٢ : ١٠٣ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١٥١ وعيون الأنباء ٣ : ٢٥٩ – ٢٦٢ .
(٦٥) الروضتين ٢ : ١١٦ .
(٦٦) لوبية : موضع في فلسطين قرب طبرية .

وقد نسي الرواة – حسبما ذكر الشاعر – ملاحم ذي القرنين ، وانشغلوا بملاحم صلاح الدين الأيوبي :

أنسى ملاحمَ ذي القرنين واعترفتْ
له الرواةُ بما لم ينمه أثرُ

ونلاحظ الشاعر في قدسيته يحرّض صلاح الدين ويحثّه على تحرير الشام كاملا ، وطرد الإفرنج من الثغور التي بقيت تحت حكمهم ، كما نلاحظه يجاري العماد الأصفهاني ومحمود بن الحسن بن نبهان العراقي في دعوتهما لإقامة دولة كبرى قوية الأركان ثابتة البنيان ، لها القدرة على غزو بلاد الروم والفرس :

تغزو أساطيلُنا منها صقلية
فتذعرُ الرومُ والصقلابُ والخزرُ
من ذا يقولُ : لعلّ القدسَ منفتحٌ
إليكَ ، بل سفرٌ يعقوب له السفرُ
أبو المظفّرِ ينويها ، فخذْ سفناً
من بابِ عكا الى طرسوسَ تنتشرُ
يسبي فرنجةَ من أقطارِها ، وله
مع المجوسِ حروبٌ قدحُها سعرُ
وبعض أبنائهِ بالقدسِ منتدبٌ
وبعضُهم رومةُ الكبرى له وطرُ
برايةٍ تخرقُ الأرضَ الكبيرةَ في
جمعٍ ،تقولُ له الأجسامُ : لا وَزَرُ

ويكرر هذه الدعوة في قدسية اخرى ، ويطلب من صلاح الدين الأيوبي أن يملك البسيطة ، ويوحد أجزاءها ، وينشر عليها راية الإسلام ، ويعيد مجد البطولات في عصر النبوّة(٦٧) :

يا فاتحَ المسجدِ الأقصى عليّ بهم
وقانصَ الجيشِ لا يُحصى بقفزتهِ
أبشرْ بملكٍ كظهرِ الشمسِ مطلع
على البسيطةِ فتّاح بنشرتهِ
حتى يكونَ لهذا الدينِ ملحمةٌ
تحكي النبوّةَ في أيامِ فترتهِ

لقد بعث خروج الإفرنج من (القدس) بعد مكوثهم فيها مدة طويلة ، حزناً شديداً ، وألماً مريراً في نفوس الأوربيين ، فهبوا يحثون ملوكهم للعودة الى الشرق ثانية ، واحتلال (القدس) ، فاستجاب ملك الألمان للدعوة ، وخرج في سنة ٥٨٥ للهجرة . وقام الشعراء من جديد بواجبهم المقدّس ، وأخذوا يستثيرون الناس للتأهّب الى حروب شديدة ، والوقوف بحزم مع قوادهم ضد الهجمات التي ينوي العدو أن يشنّها ، منهم أبو الفضل عبدالمنعم الجلياني الذي خاطب صلاح الدين الأيوبي بقوله(٦٨) :

يا منقذَ القدسِ من أيدي جبابرة
قد أقسموا بذراع الربّ تدخلهُ
استصرخوا الأهلَ ، والعدوى تمزقهم
واستكثروا المالَ ، والهيجا تنقلهُ
هم الفراشُ ، لهيبُ الحربِ تصرعهُ
وكلّما لجّ صدماً جلّ مقتلهُ
سيفٌ أمامَ فلسطين يرى أمما
خلفَ البحارِ لقد أمهاهُ صيقلهُ
وانما اسمُ صلاح الدين يذكرُ في
جيشِ العدوّ فيسبيهم تخيلهُ

ويبعث رشيد الدين عبدالرحمن بن بدر النابلسي الويل والثبور للإفرنج الذين يريدون الإغارة على (القدس) ثانية ؛ لأنهم لم يعتبروا من ضربات صلاح الدين الأيوبي التي بدّدت شملهم ، وفرّطت عقدهم ، وتركتهم بين قتيل وأسير وهارب . ويكيل الثناء لصلاح الدين ، ويشبهه بالأسد الهصور في غابة(٦٩) :

---

(٦٧) الروضتين ٢ : ١٠٣ .

(٦٨) الروضتين ٢ : ١٥١ .
(٦٩) الروضتين ٢ : ١٩٤ .

ويحَ الفرنجةِ ، بل ويلَ أمهمِ، أوما
فيهم لبيبٌ على العلاتِ يعتبرُ ؟
فكم نثرتهمُ ضرباً إذا انتظموا
وكم نظمتهمُ طعناً إذا انتشروا
فكم سقيتهمُ ذلاً فلا عجبٌ
إنْ عربدوا سفهاً فالقومُ قد سكروا
إنْ يمموكَ فلا بدع لجهلهم
تسعى الى الأسدِ في غاباتها الحمر
زاروا نموراً ولا تُغني وقاحتهم
إذا أسودكَ في أبطالهم زأروا
فحامِ عن حوطةِ البيتِ المقدس لا
خوفٌ وحاشاكَ منخوفٍ ولاضرر
هو الشريفُ وقد ناداكَ معتصماً
فما على مجدهِ من بعدِها حذرُ

لقد كانت (القدس) أنشودة الشعراء زمن صلاح الدين الأيوبي ، يتغنون بها على قيثارتهم الفرحة ، وحينما قضى نحبه في سنة ٥٨٩ للهجرة، عادوا الى حزنهم ، وانشدوا قصائدهم(٧٠) ، يبكونه فيها ، ويأسفون على فقده ، ويذكرون الم (القدس) عليه ؛ لأنها تحررت على يديه ، واطمأنت من عادية الصليبيين مدّة من الزن . وكانت قصيدة العماد الأصفهاني ، التي تقع في مئتين واثنين وثلاثين بيتاً ، خير معبّرٍ عن ذلك ، منها(٧١) :

وكعادةِ البيتِ المقدّسِ يحزَنُ الـ
بيتُ الحرامُ عليه ، بل عرفاتهُ
مَنْ للثغورِ ، وقد عداها حفظُه ؟
مَنْ للجهادِ ، ولم تعدْ عاداتهُ ؟
بكتِ الصوارمُ ،والصواهلُ قدخلتْ
مِن سلّها وركوبها غزواتهُ
يا وحشةَ الإسلامِ يومَ تمكنتْ
في كلِّ قلبٍ مؤمنٍ روعاتهُ
ملأتْ مهابتُه البلادَ ، فإنَّه
أسدٌ ، وإنَّ بلادَهُ غاباتهُ

الملامح الفنية للشعر الذي قيل في القدس :

كان لاحتلال الصليبيين (القدس) في القرن السادس للهجرة ثم تحريرها ، دور كبير وفعّال في إثارة عواطف الشعراء ، وإلهاب مشاعرهم ، وإلهامهم مادة غزيرة ، وانتاجاً ادبياً وفيراً ، عَبَّروا به عن خوالجهم وأحاسيسهم تجاه الأحداث التي جرت في ذلك العصر ووقائعه خير تعبير .

وقد تمسّك الشعراء ـ كما لا حظنا ـ بموروثهم القديم ، واقتدوا به ،وساروا على هديه، واستلهموا من صوره وأخيلته الشيء الكثير . وهذا ما جعلهم قليلي الابتكار والتوليد والإبداع .

واذا أمعنا النظر في الشعر الذي ذكرناه في دراستنا نجده ـ غالباً ـ دون تمهيد أو تقديم ، فهو يبدأ بالموضوع الأساس مباشرة ، وتتوالى فيه الأبيات ، وتتداعى المعاني ، وتتسلسل الأفكار بنسق حسن وتنظيم جيد مسايراً لتفصيلات الأحداث التي يتناولها الشعراء ، وهذا ما يؤكد وجود الوحدة الفنية وتمثلها فيه خير تمثيل .

وقد برّأ الشعراء ألسنتهم من هجر القول ورذله ، وابعدوا نظمهم ـ الاّ ما ندر ـ من الغموض والابهام اللذين يجهدان الذهن ويكدانه .

إن سمة السهولة والوضوح اتجاه معروف في القرن السادس للهجرة ، يدعى باتجاه الرقة والسهولة ، أو مدرسة الرقة والسهولة كما يسميها الدكتور محمد كامل حسين(٧٢) . وهذا الإتجاه سلكه اغلب الشعراء الذين شاركوا في النضال وحرب التحرير ، كي يكون شعرهم واضحاً وجلياً تفهمه العامة والخاصّة من القراء والسامعين .

والمتأمل في الشعر الذي قيل في (القدس) يلحظ التكرار في بعض الألفاظ والصور ، فمن الألفاظ التي يكثر دورانها على ألسنتهم على سبيل المثال : انهض ، ابشر ، اعزم ، سر ، افتح ، طهر ، اغز ، حطم ، جهز ... ومن الصور تشبيه

(٧٠) الروضتين ٢ : ٢١٥ ـ ٢١٧ ، ٢٢٤ .
(٧١) الروضتين ٢ : ٢١٦ .
(٧٢) دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين ص ١٩٠ .

(القدس) بالفتاة البكر ، أو الغانية الحسناء التي تنتظر خاطباً كفئاً يليق بها .

وقد عبَّر الشعراء عن عواطفهم ومشاعرهم أثناء الحروب التي دارت على أرض الشام ، خاصَّة فلسطين ، بكلِّ صدق وأمانة ، ونعني بالصدق : التعبير الأمين عن واقع الحياة التي كان يحياها الناس آنذاك في ظل القهر والاستعباد من جهة ، والأمن والاستقرار من جهة أخرى . يقول الدكتور محمد النويهي وهو يتحدَّث عن معنى الصدق في الأدب(٧٣) : « والصدق الذي نريده من الأديب دائماً أن يقول بلسانه حقيقة ما في قلبه ، فإن قالها فهو صادق بمعنى الصدق الأدبي ، وإن خالف كلامه الواقع في بعض الأشياء وإن لم يقلها فهو كاذب بمعنى الكذب الأدبي » . وقد كان شعراؤنا صادقين بألسنتهم وقلوبهم في التعبير عن آلامهم ؛ لأن القضية الفلسطينية كانت تشغل بالهم كما كانت تشغل بال الآخرين ، وتهمهم بقدر ما تهم الناس أجمعين .

وقد استعان الشعراء في تصوير عواطفهم ومشاعرهم بالخيال ، وهو في الغالب عندهم يقوم على كاهل بعض الفنون البلاغية ، ومظهره : التشبيهات ، والاستعارات والكنايات ، فمن تشبيهاتهم قول الحسين بن عبدالله بن رواحة (ت ٥٨٥) في مدح صلاح الدين الأيوبي ، الذي أصبح اسمه يبعث الرعب في نفوس العدو ، ويثير الخوف فيهم ، حتى خياله الذي شبَّهه بالسيف البتار(٧٤) :

يرونَ خيالَه كالسيفِ يسري
فلوا جمعوا أتاهم بعد وهنِ

ومن استعاراتهم البديعة قول ابن الساعاتي في فتح القدس(٧٥) :

وأصبحَ ذاكَ الثغرُ جذلانَ باسماً
وألسنةُ الأغمادِ توسِعُه لثما

ومن كناياتهم قول ابن الساعاتي أيضاً(٧٦) :

أدرتَ على الفرنجِ ــ وقد تلاقتْ
جموعهمُ عليكَ ــ رحىً طحونا

وإلى جانب الصور البيانية التي شاعت في شعرهم ، نرى كثرة استخدامهم المحسنات البديعية التي اتكؤوا عليها في تجميل أساليبهم وتزويقها ، خاصَّة الطباق والجناس والاقتباس . فمن الأول نأخذ أبيات سعادة بن عبدالله الأعمى التي خاطب فيها صلاح الدين الأيوبي ، ليرى القارىء الطبقات المتداخلة التي تقصَّدها الشاعر تقصُّداً(٧٧) :

لا يقعدنَّكَ ما حلُّوا وما عقدوا
هم الذئابُ ، وأنتَ الضيغمُ الأسدُ
والقومُ قد قعدوا عما نهضتَ بهِ
من السَّدادِ ، فلا قاموا ولا قعدوا
صدروا وما عطفوا ، ألووا وما وقفوا
ولّوا وما رجعوا ، ذلّوا وما أفدوا
صدعتَ ماشعبوا ،قطعتَ ماوصلوا
فللتَ ما شحذوا ، حللتَ ما عقدوا

ومن الجناس قول فقيه الدين أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله(٧٨) :

فالجَدُّ والجِدُّ مقرونان في قرنٍ
والحزمُ في العزم والإدراكُ في الطلبِ

وقول رشيد الدين النابلسي(٧٩) :

زاروا نموراً ، ولا تُغني وقاحتهمْ
إذا أسودُكَ في أبطالهم زأروا

ومن الاقتباس قول طلائع بن رُزّيك(٨٠) :

وإذا ما أبطأ مسيرُكَ فاللـ
ـهُ حسبُنا ونعمَ الوكيلُ

(٧٣) وظيفة الأدب ص ٤٨ .
(٧٤) الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية ص ٤٤٣ .
(٧٥) ديوان ابن الساعاتي ٢ : ٤٠٧ .
(٧٦) مفرج الكروب ١ : ١٩٨ .
(٧٧) الخريدة ــ قسم الشام ــ ١ : ٤١٢ .
(٧٨) الخريدة ــ قسم الشام ــ ١ : ٢٧٧ .
(٧٩) الروضتين ٢ : ١٩٤ .
(٨٠) ديوان طلائع بن رزيك ص ٨٧ .

وقول العماد الأصفهاني(٨١) :

سلِ اللهَ تسهيلَ صعبِ الخطو
بِ فهو على كلِّ شيءٍ قديرُ

وقول أحد المجاهدين(٨٢) :

ولقد أتانا عن مقالِ نبينا
قولٌ صحيحٌ صادقٌ لا يكذبُ
لا يستوي وغبارُ خيلِ اللهِ في
أنفِ امريءٍ ودخانُ نارٍ تلهبُ

بقي أن نشير الى أن البحور الموفورة الحظ من الذيوع والاستعمال في الشعر الذي تناولنا دراسته ، هي الطويلة دون القصيرة أو المجزوءة ، خاصّة الطويل والبسيط والكامل ، وهي بحور تمثل الفخامة ، وتناسب جلال المواقف(٨٣) . وقد لاءموا بين البحور التي استخدموها وبين القوافي التي نظمت — حسب الأكثرية — على حروف الراء ثم الميم والباء والنون والسين والتاء والدال والجيم والحاء . ولعل من الجدير بالذكر أنّ شعراءنا لم يخالفوا منهج الذين تقدّموهم في اعتماد قافية الراء عنصراً أساساً في النظم ، فهي من القوافي الذلل كما يقولون(٨٤) ، كما أنهم كانوا حريصين على أن يأتوا بقوافيهم مطلقة في الأعم الأغلب ، مقيّدة في الأقل القليل منها .

أمّا موسيقى شعرهم ، فكانت تلائم الجو الذي نظمت فيه ، فهي — على العموم — حربية صاخبة ، تملأ النفوس قوّة ، والأفئدة عزيمة وثباتاً .

وفي خاتمة البحث نقول : إن الشعر الذي قيل قبل تحرير (القدس) وبعده في القرن السادس للهجرة كثير في دواوين الشعراء وكتب التاريخ والأدب . وما أوردنا منه نماذج قليلة استدللنا بها على أثره في نفوس القائمين على الحكم آنذاك ، ودوره في استنهاضهم ، وقدرته على استثارتهم لخوض معركة الخلاص من احتلال القادمين من الغرب .

---

(٨١) الروضتين ١ : ٢٤٠ .
(٨٢) الحروب الصليبية وأثرها في الأدب ص ٣٥ .
(٨٣) المرشد الى فهم أشعار العرب ١ : ٤٦ .
(٨٤) المرشد الى فهم أشعار العرب ١ : ٤٦ .

المصادر والمراجع

١ — أسامة بن منقذ بطل الحروب الصليبية : جمال الدين الآلوسي ، مط أسعد — بغداد ١٩٦٧ .

٢ — التاريخ الباهر : ابن الأثير ، ت ٦٣٠ . ط دار الكتب الحديثة — القاهرة ١٩٦٣ .

٣ — تاريخ ابن الفرات : محمد بن عبدالرحيم بن الفرات ، ت ٨٠٧هـ . تح : قسطنطين زريق ، والدكتورة نجلاء عزالدين، المط الأمريكية — بيروت ١٩٣٨ .

٤ — تاريخ ابن الوردي : عمر بن الوردي ، ت ٧٤٩هـ ، تح : احمد رفعت البدراوي . دار المعرفة — بيروت ١٩٧٠ .

٥ — تاريخ أبي الفداء : أبو الفداء اسماعيل بن علي ، ت ٧٣٢هـ . المط الحسينية — القاهرة ١٣٢٥هـ .

٦ — ابن جبير شاعراً : منجد مصطفى ، مستل من مجلة آداب الرافدين — العدد التاسع ١٩٧٨ .

٧ — الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي في مصر والشام : محمد سيد كيلاني . مط دار الكتاب العربي — مصر ١٩٤٩.

٨ — الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية : د . أحمد أحمد بدوي . مط نهضة مصر — القاهرة ١٩٥٤ .

٩ — خريدة القصر وجريدة العصر : العماد الاصفهاني ، ت ٥٩٧هـ . تح : د . شكري فيصل ، قسم الشام ج ١ . المطبعة الهاشمية — دمشق ١٩٥٥ ، وبداية شعراء الشام . المطبعة الهاشمية — دمشق ١٩٦٨ .

١٠— دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين : د . محمد كامل حسين . مط دار الكتاب العربي — القاهرة ١٩٥٧ .

١١— ديوان أسامة بن منقذ : تح : : د . أحمد أحمد بدوي وحامد عبدالمجيد . المط الأميرية — القاهرة ١٩٥٣ .

١٢— ديوان ابن الخياط : تح : خليل مردم . المط الهاشمية — دمشق ١٩٥٨ .

١٣— ديوان ابن الساعاتي : تح : انيس المقدسي . المط الأمريكية — بيروت ١٩٣٨ .

١٤— ديوان سبط ابن التعاويذي : تح : مرجليوث . مط المقتطف — القاهرة ١٩٠٣ .

١٥— ديوان ابن سناء الملك : تح : محمد ابراهيم نصر . دار الكاتب للطباعة والنشر — القاهرة ١٩٦٩ .

١٦— ديوان طلائع بن رزيك : تح : د . أحمد أحمد بدوي . مط الرسالة — القاهرة ١٩٥٨ .

١٧— ديوان فتيان الشاغوري : تح : أحمد الجندي ، المط الهاشمية — دمشق ١٩٦٧ .

١٨ـ الروضتين في اخبار الدولتين : أبو شامة المقدسي ، ت ٦٦٥هـ . مط وادي النيل ـ القاهرة ١٢٨٧هـ .

١٩ـ زبدة الحلب من تاريخ حلب : ابن العديم ، ت ٦٦٠هـ . تح : د . سامي الدهان . المط الكاثوليكية ـ بيروت ١٩٦٨ .

٢٠ـ سنا البرق الشامي : الفتح بن علي البنداري ، ت ٦٤٢هـ . تح : د . رمضان ششن . ج ١ . مط دار الكتاب الجديد ـ بيروت ١٩٧١ .

٢١ـ الشعر العربي في العراق من سقوط السلاجقة حتى سقوط بغداد : عبدالكريم توفيق العبود . دار الحرية للطباعة ـ بغداد ١٩٧٦ .

٢٢ـ شفاء القلوب في مناقب بني أيوب : احمد بن ابراهيم الحنبلي ، ت ٨٧٦هـ . تح : ناظم رشيد . دار الحرية للطباعة ـ بغداد ١٩٧٨ .

٢٣ـ عيون الأنباء في طبقات الأطباء : ابن أبي أصيبعة ، ت ٦٦٨هـ . مط الاقبال ـ بيروت ١٩٥٦ .

٢٤ـ الكامل في التاريخ : ابن الأثير ، ت ٦٣٠هـ . دار صادر ـ بيروت ١٩٦٥ .

٢٥ـ المرشد الى فهم أشعار العرب : عبدالله الطيب ، مط دار الفكر ـ بيروت .

٢٦ـ معجم البلدان : ياقوت الحموي ، ت ٦٢٦هـ . مط دار صادر ـ بيروت ١٩٥٥ .

٢٧ـ مفرج الكروب في اخبار بني أيوب : ابن واصل ، ت ٦٩٧هـ . تح : د . جمال الدين الشيال . ج ١ . مط جامعة فؤاد الأول ـ القاهرة ١٩٥٣ ، ج ٢ المط الأميرية ـ القاهرة ١٩٥٧ .

٢٩ـ موسيقى الشعر : د . ابراهيم أنيس . مط لجنة البيان العربي ـ القاهرة ١٩٥٢ .

٣٠ـ النجوم الزاهرة : ابن تغري بردي ، ت ٨٧٤هـ . دار الكتب المصرية ـ القاهرة ١٩٣٦ .

٣١ـ النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية : بهاء الدين بن شداد ، ت ٦٣٢هـ . تح : د . جمال الدين الشيال . ط الدار المصرية للتاليف والترجمة ـ القاهرة ١٩٦٤ .

٣٢ـ وظيفة الادب بين الالتزام والانفصال الجمالي : د . محمد النويهي . مط الرسالة ـ القاهرة ١٩٦٦ .

• • •